

## الفنّ في ثقافة المقاومة من أجل مستقبل أكثر معنى

## Art in the culture of resistance For a more meaningful future

هيبّة المسعودي\*

جامعة جندوبة / تونس (messaoudi\_hiba@hotmail.fr)

تاريخ الاستلام : 2021/12/05 ؛ تاريخ القبول : 2022/04/01 ؛ تاريخ النشر : 2022 /05/ 20

## Abstract

## الملخص

This intervention aims to reflect on the future of culture from the point of view of art as part of what is known as "cultural security" for which future strategies must be drawn up to develop and work on its content in criticism and abuse. We must research the lines of resistance he invented to make sense. Because one of the signs of the collapse of a culture is the collapse of its art and its fall into a drought of significance, especially since all artistic monuments have meanings, otherwise they would cease to be so.

تروم هذه المداخلة التفكير في مستقبل الثقافة من جهة الفنّ باعتباره جزء من ما يعرف "بالأمن الثقافي" الذي وجب رسم استراتيجيات مستقبلية لتطويره والاشتغال على هنائه نقداً وتحاوذاً، ولأنّ راهن الفنّ قد سيطر عليه "نظام التفاهة" وسطت عليه الرأسمالية الفنية والصناعة الثقافية، فإنه كان لزاماً علينا البحث في خطوط المقاومة التي اخترعها لاتحادات المعنى. لأنّه من دلائل انهيار ثقافة ما هو انهيار فنّها وسقوطه في قحط الدلالة خاصة وأنّ كل الآثار الفنية لها معانٍ وإلا كُفّت عن أن تكون كذلك.

**Keywords :** Art - culture - artistic capitalism - cultural industry - resistance.

**كلمات مفتاحية:** الفنّ - الثقافة - الرأسمالية الفنية - الصناعة الثقافية - المقاومة.

## 1. مقدمة:

مما لا ريب فيه أننا نعيش على وقع عصر مأزوم، باتت علته أكثر من أدويته خاصة بعد اكتساح "نظام التقاهة" على حدّ عبارة الفيلسوف الأمريكي آلان دونو، كل المجالات الإنسانية الحيوية لنجد أنفسنا في ثقافات جماهيرية تعلي من الابتذال وتهتم بالسفاسف والتقليل بدل المعنى والقيم، وتستثمر حدة الاغراء البصري والبهرج الإعلامي لتخلق "مجتمعات الفرجة" وفق عبارة غي ديور لا الجموع المفكرة والحرّة كما قد نظر لها أنطونيو نيغري.

إنّها لورطة إنسانية لا يمكن تخيل حجم استتبعاتها في المستقبل، لذلك على العلوم الإنسانية والاجتماعية والفنون اختراع خطوط مقاومة حثيثة رسماً لذلك المستقبل الذي نرتضيه لا لأنفسنا فقط، بل للإنسانية. وهنا علينا التفكير في ما يمكن أن يقدمه الفنّ باعتباره جزء مهما في الثقافات والحضارات. فكيف لنا أن نتخيل مستقبل الفنّ؟ أعليه أن يرباض وهاد الخضوع والامتثال لواقع الرأسمالية الفنية والصناعة الثقافية أم يفترع لذاته خطوط مقاومة؟ وكيف للفنّ أن يكون خطاً مقاوماً من أجل مستقبل انساني؟.

## 2- الفنّ والواقع:

إنّ العلاقة بين الفنّ والواقع علاقة جدلية، تتباين بين اللاتحام والانفصال. التحام فيه التزام بالقضايا وترديد لهواجس الفنان الناقد أو المصور لهموم عصره، وانفصال في شكل من ابتكار واقع فني مغاير يضارب الواقع الحقيقي، بين هذه الثنائية قد طُرز تاريخ الفنّ.

### • الفنّ تجميل للواقع الذي ليس كذلك

لقد اتخذ الفنّ في مرحلة من تاريخه خطّ هروب من الواقع، فكان ملجأً الحالمين والمنعزلين والذين اتخذوا قرار الاستقالة من الواقع وقضاياها، ليرتسم بذلك عالمين على حدّ دقيق من التوازي الأول جمالي فنيّ والآخر واقعي حقيقي، والأول منقذ من الثاني. إنّها لصورة تعيدنا إلى التقسيم الثنائي

الأفلاطوني للعالم لكن وفق معايير مغايرة. فالعالم وفق هذا الرسم ينقسم إلى جميل وقبيح، جميل بالفنّ وقبيح في الواقع. وهنا يندرج التصوري النيتشوي "لنا الفنّ كي لا تميّتنا الحقيقة" فالحقيقة حسبه ما عادت تعنينا في شيء وهي همّ يكدر علينا صفو الجميل، والواقع عفن متعفن بالقوى الارتكاسية الرجعية التي تكرر معاني الخضوع وسلب الإرادة. فنيّشه وإن انتصر للفنّ وأعلى من قيمته بالاحتفاء بالاله ديونيزوس في التراجيديا الاغريقية، فلا أحد بإمكانه نكران حركة تفتيق الفنّ عن واقعه في شيء من إعادة توزيع الآلهة فكأنما الفنّ ديونيزوسي والواقع أبولوني.

لقد كتب نيتشه في الشذرة 299 من العلم الجدل "ماهي الوسائل التي نملكها لنجعل الأشياء جميلة، جذابة ومرغوبة، عندما لا تكون كذلك، ويبدو لي أنّها في ذاتها ليست كذلك على الإطلاق (نيتشه، 2001، ص 165) " ففي تصوره أنّ الفنّ أحد هذه الوسائل التي تملك اقتدار التجميل أوالترزين لماهو ليس كذلك فالإنسان ما عادت له طاقة على تحمّل قبح الواقع وفظاعته باعتباره تخمة من الفظاعات التي صارت تحاصر الذات الحرة، فكان لزاما افتراع عالم حر يمثل خط هروب أو ملاذا تهرع إليه النفوس خوفا من التهاوي المتواصل والانحطاط الذي لا يستقر على مستوى. هاهنا يكتب عمر العلوي في التفكير والحدود" يقترح الفنان علاقة جديدة بالواقع، فيعيد شذبه وتنقيفه. إنّه يخلص إلى أشد المناطق جمالا وسط أشد المناطق قبحا (العلوي، 2021، ص 291). " فالفنّ لا يغدو أن يكون إلا مغالطة لحقيقة الواقع، والاسراع في تعميم جمال في الأصل لا وجود له، قد يكون إيهاما أو كذبا أو ربما مغالطات جمالية.

لذلك ظلّ الجميل الفنّي لردح غير يسير من الزمن مهربا من فظاعات الواقع وقسوته لافضا كل مواجهة مع الواقع، أو الاحتكاك بعالمه في شيء من الانبئات من القبح المقيت ومرارة الحقيقة فهل حافظ الفنّ على ذات السياسة تجاه الواقع؟ أليس بإمكانه أن يلتحم التحاما مباشرا مع الواقع في شكل من المواجهة؟ أليس من المناسب أن نرسم استراتيجيات للمقاومة في الاستطيقا المعاصرة؟.

### 3- الفن المعاصر والانخراط في الواقع

ثمة منعرجات تحدث في التاريخ، فتبدل مساراته كشكل من التحرر أو القطع مع البراديغم السابق، ولعل تاريخ الفن ليس في منأى عن مفاهيم مثل القطيعة والتجاوز والتحرر، مفاهيم قدت من لندها حركات وتوجهات ونظريات معاصرة. فالفن المعاصر كبراديغم مخصوص تضعه نتالي هنيش في كتابها براديغم الفن المعاصر ضمن براديغم فني جمالي متفرد فيه أشكال من المقاومة للرسم القائم على الفصل بين الواقع والفني. إنه لمنعرج حاسم في الاستطيقا حيث غدا الرائع بقيحه ومفرعه ومخيفه ضربا من ضروب المواجهة والصدام في ما يعرف باستطيقا الصدمة والكارثة لذلك قد اعتبر عمر العلوي أن " تأتي المقاومة من الأسفل وتتوزع استراتيجيا لتعاصر السلطة وتحايلها. فليست المقاومة صورة معكوسة للسلطة، بل هي مبتكرة ومتحركة ومنتجة، كما أنها تنتظم كالسلطة، فتتختر وتترسخ (العلوي، 2021، ص 291) من أجل المواجهة. وهنا كان لابد من انبثاق براديغم فني يخالف سياسة الهروب ويتخذ من المواجهة، مواجهة الواقع بقبحة وفظاعته الفظة ماهية شكل آخر من أشكال الفنون وطريقا ممكنا للجمالية. لكن هل الفن في وضعيته الحالية قادر على الافلات من سياسات القحط والمؤمرات؟.

إننا نرزع تحت نير سلطة المادة أو الرأسمالية المتوحشة التي حولت الكل إلى سلع تباع وتشتري في قاعدة البيع والشراء أو العرض والطلب، قاعدة جهنمية كناعورة الهواء تبتلع الكل منها الفن الذي هوى إلى بالوعة السلعة مثله مثل الثقافة، لقد سطت الصناعة الثقافية على الثقافة والجميل الفني في شيء من الاستغلال الرأسمالي فبات الكل في وسط رحي المأسسة المجحفة، فالفن بات يقدم في جرعات صناعية كجرعات الدواء في معارض راقية وأسطوانات جميلة وصور على الانترنت لتشغل في مرحلة ثانية إغواءات الاشهار وجبروت الدعاية ويغدو الكل بثمان حتى القيم الجمالية صارت رهينة قحولة السياسات والصناعات الثقافية الرأسمالية.

آلان دونو يرقب هذه الفخاخ التي أوقعت الفن في الجمالية الرأسمالية بفكر ناقد ثاقب كما قد رقبه ماركوز وهاركهمير من قبل في كتابهما جدلية العقل، ويكتب في شيء من الإزدراء من عالم النفاهة "النقود تخدم الفن وتستخدمه في الآن ذاته لتخبر عن نفسها باعتبارها وسيلة توسيطية للتأثير في

التقاهة في أعظم حالاتها (دونو، 2020، ص248). " إنَّ سوق الفنِّ واقتصاد الفنون باتا يبتلعان هالة الأثر الفنِّي والقيم الجمالية التي كان يبدع من أجلها الفنان توقا إلى التحرر من كل السجون التي تقبض عليه لأن "في عصر إعادة إنتاج التقني للأعمال الفنية، يجد الرعاية أنفسهم يدعمون ليس فقط فنانا منفردا، مدرسة، أو حقلا معرفيا، بل يدعمون كذلك المنتجات الاستهلاكية للصناعة الجماهيرية (دونو، 2020، ص 264) " لعمري أنَّها وضعية حرجة وحادة تجعل من الفنِّ يلج بسهولة إلى لعبة الرأسمالية فيكون "إكسسوارا لاهداف له سوى تنشيط الحياة العادية، زركشتها وجعلها أكثر حسية (دونو، 2020، ص 283).

إنَّ سلعة الفنِّ في عمقه سلعة للثقافة حيث أن الفنَّ الجزء الجمالي من ثقافة الشعوب وقد أوضح آلان دونو "فما الهدف من السلع الثقافية إلا تشكيل الجماهير الذين يمثلون كتلة الزبائن والداعمين، باعتبار الاثنين لازمين لرأس المال (دونو، 2020، ص 265). فالكل غدا مستهلكا لبضائع أو مسكنات لفعل المقاومة في شيء من التهميش. لذلك في النظام التقاهة ثمة مماثلة بين الخير والفنان خاصة في التواطؤ. فيفصح دونو الأمر كاتباً " كما هو الحال مع الخير، فإنَّ الفنان الخاضع لقيود الإدارة الخاصة يمكن أن يجنَّد في أوقات الأزمة. وفيما يحاول الخير طمأننتنا من خلال السرد فضائحي وما لا يغتفر وإظهاره كأنه أمر لازم ومنطقي، فإنَّ الفنان يطلب ليكون إلى جانب سرير الضحية (دونو، 2020، ص 279). " إنَّ الفنَّ في السياسات الثقافية أصبح أفيونا لطمس جرائم الرأسمالية والتستر على آثامها تجاه الانسانية، لقد بات متواطئاً مع مافيات المتاجرة بحقوق الإنسان وقيم العدالة والحرية والمساواة.

إنَّ الصناعة الثقافية والرأسمالية الجمالية لا يعدو أن يكون مسكناً لألام الشعوب المقهورة والحريرات المسلوقة. فأن تكون فنانا معناه أن تقدم عرضاً موسيقياً لضحايا التعذيب أو لسجناء الرأي في شكل عرض مدعم من السلطة التي اضطهرتهم. هكذا غدا الكل مساهماً في سياسات التلهية وامتصاص غضب الضحايا بمطوية آثار فنية تتسج لنا عوالم النسيان وفراضيات الاستقالة من الواقع. ربَّ فخ مغالط حان وقت الاشتغال على تفكيك نقاط الغباء المبرمج التي يصدرها للجماهير. فكيف للفنِّ أن

يقاوم قضبان الرأسمالية والسلعنة؟ وهل الفن باستطاعته ارساء ثقافة العلو والقيم محاربة للانحدار والتفاهة؟.

ههنا وفي خضم هذا الإشكال، كان لابد لنا من استدعاء طرح الفيلسوف الفرنسي المعاصر ميشال فوكو حول المقاومة، وحسبه أنه ثمة علاقة محايدة بين المقاومة والسلطة أي أنّ المقاومة لا تكون إلا معاصرة للسلطة بمعنى نفي كل ضروب القبلية والبعدية. فالمقاومة والسلطة لا يصيران إلا على خط من التوازي لذلك يكتب ميشال فوكو " ليست ثمة من أسبقية منطقية أو كرونولوجية للمقاومة (العلوي، 2021، ص 294) والفن في هذه الوضعية الحرجة لامناص له إلا من اختراع طرق لمقاومة واقعه الذي يزداد غرقا في السلعنة والتبضع، لا بالهروب والاستقالة فيعود إلى الرسم النيتشوي، إنما يلزمننا ضربا من الاشتباك أو الاختلاق أو المواجهة مع السلطة حتى نستطيع افتراع فنّ مقاوم يمتلك اقتدار الهروب من المراقبة الصارمة لأنه " ثمة معركة أساسية ستدور رحاها بين أشكال المراقبة والمحاولات المتعددة للإفلات، أي بين بنية صارمة وفعل مقاوم، أو بين سلطة القولية ولاشكلية المادة (العلوي، 2021، ص 296) "

إذن كلما كانت هنالك سلطة سواء كانت ميروفيزيائية أو ماكروفيزيائية يجب أن تظهر المقاومة، والفن قد تسلط عليه الكثير فكتب ألان دونو "يود المستثمرون لو أصبح الفنانون جمهورا سلسا يصفق لشعوزاتهم. (العلوي، 2021، ص272) لكننا نعلم أن الفن بأصنافه حتى تلك تأبى التصنيف وتزواج بين الكثير. فكيف سيتحرر الفن من للرأسمالية الفنية وأشكال الاستلاب الأخرى؟ وهل يمتلك اقتدار المقاومة من أجل ذاك المستقبل الذي نتوق إليه؟

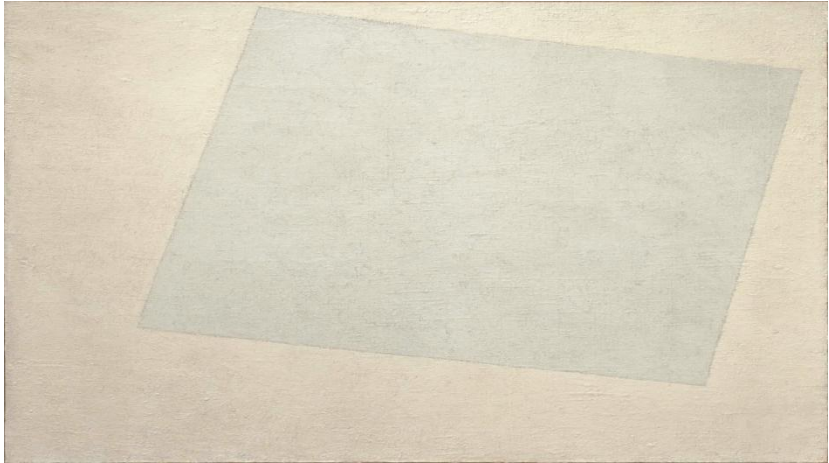
#### 4- الفن المعاصر وخطوط المقاومة:

تسأل أنطونيو نيغري "كيف عبور هذه الصحراء؟ كيف لنا أن نتخيل من جديد انفتاح العالم على الفرح؟ (Negri, 2009, p. 132)" فتجيبه أم الزين بنشيخة المسكيني في حوار فلسفي شيق تضمنته مقدمة كتاب مؤناسات في الجماليات بقولها: "للمستقبل ذائقة أخرى علينا تجربتها للتو بدلا من انتظار حلول مستقبل قد لا يقبل من الجهة التي نحلم بها... من أجل ذلك نحتاج إلى كمية

أخرى من القدرة على نشر مشاعر الفرح. (الزين، 2015، ص 13)" ومشاعر الفرح لا تكون إلا بالقدرة على التصدي لكل استراتيجية سرق قيمة الفن من مجتمعاتنا أو هالة الأثر الفني وفق عبارة والتر بنيامين، تصد وقع لنا منعرج الرائع.

### 5- الرائع مقاومة للصناعة الثقافية وسلعة الفن:

إنّ منعرج الرائع يفني الجميل وينهيه في شيء من مقاومة سلعة الأثر الفني، فإذ المتلقى قد بات بحثا عن الجمال السطحي في الفن، فإن الرائع تعاقد مع القبيح والمفرع والمرعب للتعبير عن الواقع الذي كما يراه أدرونو قبيحا. إنّ نهاية الجميل شكل من أشكال المقاومة حتى يصبح الفن أكثر قربا من التفكير وبعدا عن المظهر الذي استغلته الصناعة الثقافية واستثمرت فيه الرأسمالية، فكان لابد من القضاء عليه لتأسيس فن يقاوم من أجل ثقافة عالية ومتفردة حال مالفيثش وتيار المونوكروم فمربعات مالفيثش من المربع الأسود إلى المربع الأبيض الذي تفكرت فيه آن كوكلان لافتراع مفاهيم مثل "اللاشيء العظيم" و الطمر" مثّلت مقاومة للجميل الذي يتهافت عليه المستثمرون.



مالفيثش، لوحة "أبيض على أبيض"

مالفيتش جعل من فنّه غير قابل للاستهلاك البصري التبتّعي، بل فتحه على عوالم الفكر والتأويل المتعدد ليندرج الأثر الفني في ما يسميه ألبرتو إيكو "الأثر المفتوح" تبديدا لكل آثار الرأسمالية الفنية.

## 6- الفنّ في الفضاء العمومي

لقد ظهرت الجرافيتي وفنّ الأرض والأداء وفنون الشوارع كأشكال من أشكال مقاومة السلطة في الفضاء العمومي، إنّ الفنّان لا يمكن أن يكون مستقيلا من الواقع، بل عليه أن ينخرط في المواطنة بكل أشكالها في ضرب من التشاركية واقتحام الفضاء العمومي باعتباره فضاء للقاء بين السياسة والاستطيقا حسب جاك رنسيار. "إنّ الفضاء المأهول بالخطاب العمومي" لتغدو الشوارع مكانا للصدام الرمزي، فيه ينحت الفنان مواقفه من السلطة.



صورة من شوارع الجزائر

## خاتمة:

إنّ الثقافة الإنسانية التي تعلّى من القيم والمبادئ هي ما نرثها إليه، خاصة بعد سطوة الرأسمال الثقافي على كل معالمنا وتسرب ثقافة الابتذال والتفاهة إلى الابداع الثقافي الذي ينطوي بالضرورة على ماهو فني. لذلك لا استراتيجيات ثقافية يمكن رسمها ما لم نعلم بالمحافظة على الأمن الثقافي ومنه الأمن الفني لذا يندرج نقد ثقافة الابتذال في إطار تنقية المستقبل ومقاومة ارهصات الحاضر.

## قائمة المصادر والمراجع:

Negri. (2009). *Art et multitude, Neuf lettres sur l'art suivies de Métamorphoses*. mille et une nuit.

آلان دونو،. (2020). *نظام التفاهة*. (ترجمة مشاعل عبد العزيز الهاجري، المحرر) بيروت: دار سؤال للتوزيع والنشر.

الزين ب. أ. (2015). *مقدمة في الجماليات*. بيروت: مؤنسات في الجماليات، بيروت و منشورات ضفاف، ضمن الكتاب الجماعي.

عمر العلوي. (2021). *التفكير والحدود... دراسة في استيطيقا المقاومة*. تونس: الدار التونسية للكتاب.

فريدريش نيتشه. (2001). *العلم الجذل*. (ترجمة سعاد حرب، المحرر) بيروت: دار المنتخب الغربي.